المحور الثاني

في دراسات لغوية

معاصرة

تجديد النحو بين المشروع والمنجز

Syntax renewal between the project and the realization

أ.بوقمرة عمر*

ج. الشلف

تاريخ الإرسال:2018/01/10 تاريخ النشر:2018/01/21

ملخّص البحث: تواجه اللّغة العربيّة وهي على مدارج القرن الحادي والعشرين جملة من التّحديات ولعلّ أصعبَها وأخطرها تلك المتعلّقة بمواكبة روح العصر ومتطلّباته المتزايدة بوتيرة رهيبة، ولن يتمّ ذلك إلا بتخليصها وإنقاذها من كلّ ما يكتنف سبيلها من معوّقات، فاللّغة العربيّة يصدق عليها ما يصدق على جميع اللّغات الإنسانيّة من نواميس النّشوء والارتقاء والتّطوّر، تطوّر لا ينحصر في إنتاج المفردات بالأنظمة الدّاخلية للّغة ذاتها، ولا في اقتراض المصطلحات الأجنبيّة طوعا وكرها، ــ وهذا أمر طبيعي درجت عليه جميع اللّغات منذ القدم ولا زالت تقيم عليه إلى يومنا هذا ــ بل يتعدّاه إلى ظهور تراكيب جديدة تقع في حمى النّحو وتنتهك محارمه، وصاحب ذلك محاولات ودعوات لتجديد النّحو وإحيائه، بل وتخليصه من أغلال النّحو القديم بغية تسهيله على الناشئة وتحبيبه إليها وإعادة ربط وشائج المودّة بينه وبين مظانّه الأولى برفق ولين حتى غدت ــ مشكلّة التّجديد ــ معضلة قومية تؤرّق الجميع، فتداعت لها أقلام بعض الباحثين المحدثين واختلفت طرائق التّجديد وتنافرت لدرجة التّضاد. وهذا البحث يجتهد في استجلاء تلك الطّرائق ومضامينها الدّلاليّة، ومدى نجاعتها في بعث اللّغة العربيّة من جديد.

* norasjp17@gmail.com

مقدمة: إنّ مسألة التّجديد مسألة شائكة تتشابك فيها وجهات النّظر بين مؤيّد ورافض وحيثما وجد الرّفض والقَبول اشتدّ الحجاج والجدال، وكلّ طرف يسعى جهده لإثبات وجهة نظره، وذلك بعرض الحجج والأدلّة. ومن أبجديات الحجاج أن يتوافق الفريقان على أرضيّة مفهوميّة مصطلحيّة توفِّر عليهما الجهد والوقت وتريحهما من عناء اللّدد والخصومة، ومن هذا المنطلق اقتضت منهجيّة البحث ضبط المصطلحات والمفاهيم، وتحديد عناصر البحث ومجاله، ذلك أن البحث في القضايا المُختَلف فيها يفرض علينا حصر أهمّ المفردات والمصطلحات وتطويق المفاهيم والتّعاريف الّتي وُضِعت لها، واستجلاء حمولاتها الفكريّ ة وأبعادها الدّلاليّة وبدون ذلك لا نستطيع تحديد الغاية الّتي نطمح إليها، ولا الفكرة الّتي نروم توضيحها وزفَّها إلى المتلقي في كامل زينتها، ومن هنا اكتسى البحث في علم المصطلح دورا أساسا في مجال البحث العلمي وكان أوّل مظهر من مظاهر نضج العلوم واكتمالها واستقلالها كما يرى (عبد السلام المسدي) "هو إفراز ثبت من المصطلحات يخصها ويميزها عن غيرها".[1]

ومن هذا المنطلق سنحاول في هذا العنوان استجلاء المضامين الفكريّة الثّاوية خلف مصطلح التّجديد النّحوي، فكلّ مصطلح يحتفظ في داخله بكلّ الجدل المعرفي وهو يمثّل صراع الأفكار في حركة العلم والمعرفة، بل المصطلح في حدّ ذاته هو لغة التّواصل ووسيلة من وسائل الحوار الهادئ والبنّاء.

التجديد لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور الإفريقي تحت مادة (ج. د. د) ما يلي:

– الجِدّة نقيض البِلى، يقال: شيء جديد والجمع أجِدّه وجدُدُ وجُدَد

–وقال أبو علي وغيره: جدّ الثوب والشّيء يجدّ ــ بالكسر ــ صار جديدا، وهو نقيض الخَلَق وأصل ذلك كلّه القطع.

–وثوب جديد: جُدَّ حديثا أي قطع.

– والجِدَّة مصدر الجديد وأجَدّة واستجدَّه أي صيّره جديدا".[2]

وجاء في مختار الصّحاح: جدَّ الشّيء يُجِدُّ جدّة (بكسر الجيم فيهما) صار جديدا وهو نقيض الخَلَق".[3]فالتّجديد في اللّغة هو بعث الشّيء وتحديثه وجعله جديدا، وهو نقيض البِلى والقدم والخَلَق.

التجديد اصطلاحا: معنى التّجديد الاصطلاحي هو عينه المعنى اللّغوي مشربا بما تقتضيه طبيعة الإضافة من مدلول خاص ومعنى ضيق، والحقيقة أنّني لم أعثر على مفهوم محدّد لهذا المصطلح عند النّحاة الجدد، وذلك راجع في تقديرنا لأمرين اثنين هما: بداهة المعنى، وتناثر البحوث في هذا الاتّجاه وعدم نضجها لحدّ السّاعة ولكن لا بأس أن ننطلق من التّجديد في مفهوم الشّرع ، ثم نحاول إسقاطه على النّحو مع مراعاة ما ينبغي مراعاته من الفوارق، فقد ورد في السّنة النّبويّة المطهّرة عدّة إشارات إلى أنّ الله سبحانه وتعالى سيحفظ هذا الدّين وسيبقيه خالدا دهر الدّاهرين، وأبد الآبدين وذلك ببعث علماء ربّانيين بين الفترة والأخرى ليجدّدوا ما اندرس من معالمه، وإحياء ما مات من سننه، إلاّ أنّ لفظ التّجديد لم يرد إلاّ في حديث واحد صحيح رواه أبو أبي هريرة وأخرجه أبو داود والحاكم ، وهو قوله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ : إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مئة سنة من يجدّد لها دينها".[4]

وقد فهم علماء الشّريعة أنّ المراد بالتّجديد هو إحياء ما اندرس من معالم السّنن ونشرها بين النّاس وحملهم على العمل بها، يقول المودودي "المجدّد: كلّ من أحيا معالم الدّين بعد طُموسها وجدّد حبله بعد انتقاضه".[5]

ويقول عبد الفتّاح إبراهيم:" التّجديد يعني: العودة إلى المتروك من الدّين وتذكير النّاس بما نسُوه، وربط ما يجِدُّ في حياة النّاس من الأمور بمنظور الدّين لها لا بمنظارها إلى الدّين ".[6]

ويقول القرضاوي: "إنّ التّجديد لِشيء ما: هو محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قدمه كأنّه جديد، وذلك بتقوية ما وَهِن وترميم ما

بلي ورتق ما انفتق، حتّى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأول فالتّجديد ليس معناه تغيير طبيعة القديم، أو الاستعاضة عنه بشيء آخر مستحدث مبتكر، فهذا ليس من التّجديد في شيء... ولا يعني تجديده إظهار طبعة جديدة منه، بل يعني العودة به إلى حيث كان في عهد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وصحابته ومن تبعهم بإحسان".[7]

فالتّجديد إذن هو بعث وإحياء ما اندرس وانطمس من المعالم والسّنن، وحث النّاس وحملهم على تَمَثُّلِهَا في حياتهم، وبعبارة أخرى العودة إلى المتروك من الدّين وتذكير النّاس بما نسوه وربط ما يجِدُّ في حياتهم من الأمور بمنظور الدّين إنَّه محاولة الرُّجوع إلى النّموذج الأول حين نشأ وظهر حتى يبدو رغم قدمه كأنّه أمر جديد، وذلك بتقويّة دعائمه، وترميم ما بلي ورتق ما انفتق، فالتّجديد ليس معناه الثّورة على القديم وتغيير طبيعته أو استبداله بشيء آخر مستحدث، فهذا ليس من التّجديد في شيء.

ولو حاولنا صياغة معنى اصطلاحي للتّجديد في مجال النّحو مسترشدين بما نقلناه آنفا عن علماء الشّريعة لقلنا: **هو محاولة إحياء ما اندرس من العمل بقواعد النَّحو وتمثّلها في حياة النّاس على أوسع نطاق ممكن كما كان عليه يوم نشأ وظهر أول مرّة، وذلك بمحاربة اللّحن وتطهير ألسنة النّاس منه.**

والملاحظ أنّ هذا التّعريف المسبوك يقوم على أساسين وهما:

1) إحياء ما اندرس من العمل بقواعد النّحو: وأظنّ أنّ الفرق واضح بين إحياء ما اندرس من العمل بقواعد النّحو، وبين إحياء قواعد النّحو، فقواعد النّحو لازالت محفوظة في كتب النّحو وغيرها، وهذا أمر واضح لا إشكالَ فيه، ولكن الإشكال في مراعاة هذه القواعد في مخاطباتنا المختلفة الرّسمية منها وغير الرّسمية والتزامها النّحو.

2) الإحياء لا يتمّ إلاّ بالتّخلص من اللّحن وتطهير ألسنة النّاس منه خاصّتهم وعامّتهم، كما كان عليه الأمر زمن النّشأة الأولى، ويقصد بها عصور الفصاحة الّتي استقى النّحاة منها قواعدهم، وأقاموا عليها صرح نحوهم، فالتّجديد يتمّ عبر وظيفتين أساسيتين هما: الإحياء والإماتة، أو التّخلية والتّحلية، أو الهدم والبناء إحياء العمل بقواعد النّحو وتحلية الكلّام بها، وبناء الفصاحة عليها وإماتة اللّحن ومحاربته وتخلية الكلّام منه.

التّكوثر المصطلحي للتّجديد: شاعت في العصر الحاضر مصطلحات كثيرة مثل التّيسير، والتّصويب والإصلاح، وغيرها، وقد عوملت من قبل كثير من الباحثين كمترادفات، ولكنّها لا تخلو من فروق، **فالتّيسير** هو التّبسيط لكنّي لا أظنّه أُلبِس مفهوم التّجديد آنف البيان، بل أُعطِي مفاهيم مختلفة لاختلاف الباحثين ووجهات نظرهم، فهو عند بعضهم تبويب النّحو تبويبا جديدا والتزام طرائق التّدريس التّربوي فيه، وعند بعضهم الآخر هو إعادة النّظر في معالجة النّحو معتمدين مناهج البحث اللّغوي من وصف ومقارنة وتأريخ وعند فريق آخر هو تغيير أحكامه وقواعده حتى تحصل السّهولة المرجوة، ومنهم من يراه اختيار الأسهل من آراء المدارس النّحويّة المختلفة، وبعضهم يقصّره على تخليص النّحو من الفلسفة اليونانيّة ومنطقها الّتي أثخنت النّحو بالتّعليلات فأفسدته وعقّدته.[8]

أمّا **التّصويب** ويرادفه **التّصحيح**، فهو حركة تصحيحيّة صاحبت ظهور اللّحن بعد فساد ألسنة النّاس نتيجة اختلاط العرب بالعجم بعد أن دخل النّاس في دين الله أفواجا وتُعنى بمحاربة اللّحن وحماية جناب الفصحى على المستوى الصّوتي والصّرفي والنّحوي والدّلالي. قال الزّبيدي: "ولم تزل العرب تنطق على سجيّتها في صدر إسلامها وما مضى من جاهليتها، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل النّاس فيه أفواجا، وأقبلوا إليه أرسالا، واجتمعت فيه الألسنة المتفرّقة واللّغات المختلفة ففشا الفساد واستبان منه في الإعراب الذي هو حليّها والموضّح لمعانيها...".[9]

وهذا لا يعني أنّ العرب الأقحاح منزَّهون عن مقارفة اللّحن، بل قد وردت روايات تفيد وقوعه في عهد النبي –صلّ الله عليه وسلّم – فحين لحّن رجل بحضرته فقال: "أرشدوا أخاكم فقد ضلّ". وقال أبو بكر رضي الله عنه مستهجنا اللّحن :" لأنّ أقرأ فأسقط أحبّ إليَّ من أن أقرأ فألحّن". ومرَّ عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– على قوم يسيئون الرميّ فعاتبهم فقالوا: إنَّا قوم "متعلّمين" فغضب وقال:" والله لخطؤكم في لسانكم أشدّ عليّ من خطئكم في رميكم".[10] والأمثلة في هذا المضمار كثيرة ليس هذا مجال سردها وتكفي منها الإشارة والإثارة . والشّيء المؤكّد هو أنّ اللّحن في العهد الأوّل كان قليلا ذليلا ولكن بعد تداخل الألسن فشا عند خاصّة النّاس فضلا عن عامّتهم حتى غدا التّأليف في هذا المضمار – التّصحيح اللّغوي – من أهم أبواب العلم وأجلها بل من فروض الكفاية، فألّف الكسائي ت189ه كتابه (ما تلحّن فيه العامّة) وألّف ابن السكيت ت244ه كتابه (إصلاح المنطق)، وألّف ابن قتيبة ت276ه كتابه: (أدب الكاتب)، وألّف أبو العبّاس أحمد بن يحيى: ثعلب ت 291ه كتابه (الفصيح) وألّف الزّبيدي ت379ه كتابه (لحن العوّام)، وحمي التّأليف واستمر حتى عصرنا فظهرت مؤلفات مثل كتاب لغة الجرائد لليازجي، ومعجم الأخطاء الشّائعة لمحمد العدناني، وأخطاء اللّغة العربيّة المعاصرة عند الكتاب والإذاعيّين لأحمد مختار عمر ومعجم الصّواب اللّغوي دليل المثقّف العربيّ له أيضاً، والقائمة مفتوحة.

والملاحظ أنَّ حركة التّصويب اللّغوي كان باعثها اللّحن ومن رحمها خرج النّحو الّذي صارت قواعده فيما بعد سيفا مسلطا عل رقاب اللاّحنين، كما يستنتج أيضاً أنَّ مفهوم التّصويب اللّغوي يقترب من مفهوم التّجديد النّحوي وسبيلهما واحد، وهو التزام قواعد السّلامة اللّغوية وإن كان التّصحيح اللّغوي أعمّ من التّجديد النّحوي، لأنّه يتضمّن كلّ ما يتعلّق باللّغة في حين أنّ الأخير يتعلّق بالنّحو وقواعده، هذا نظراً أمّا

تطبيقاً فكثير من الباحثين يجعلونهما بمعنى واحد، وغايتهما واحدة وهي إحياء اللّغة وبعثها من جديد كما كانت أيّام النقاء اللّغوي مبرَّأة من كلّ شائبة.

ولكن هل مفهوم التّصحيح قديما وحديثا شيء واحد؟ أظنّ أنّ الأمر يختلف اختلافاً شاسعاً في الوسائل والغايات، ولذلك وجدنا المعاصرين قد افترقوا فريقين:

1) فريق عرف بحرصه الشّديد في الحفاظ على اللّغة المثاليّة، ويتمثّل دورهم في الإحياء والبعث ملتزمين مناهج القدامى، ولذلك فعملهم امتداد لظاهرة محاربة اللّحن قديما.

2) وفريق آخر يمكن أن يطلق عليهم اسم "التّجديديّون" أو "النّحاة الجدد" ويقوم منهجهم على التّوسع في تصحيح وتصويب كلّ ما أمكن تخريجه بوجه من الوجوه رافعين شعار "التّصحيح أوّلا"، وها هو أحمد مختار عمر صاحب معجم الصّواب اللّغوي ــ وهو من رواد التّصحيح اللّغوي المعاصرين ــ يذكر في مقدّمة معجمه أنَّ سبب تأليفه لهذا الكتاب هو التّيسير الّذي لا يضيِّق واسعاً، ولا يخطِّئ صواباً، ثم أبدى ما لاحظه من عيوب في مؤلّفات عربيّة تناولت موضوع الخطأ والصّواب منها:

– عدم شمولها لعبارات وألفاظ وأساليب شائعة في لغة العصر الحديث.

–تشدُّد بعضها في مسألة الخطأ والصّواب، ورفضها لكثير مما يمكن تصحيحه بوجه من الوجوه رافعين شعار "قل ولا تقل".

–انشغال بعضها بقضايا تراثيّة وألفاظ مهجورة تجاوزها الزّمن ولم تعد موجودة في لغة العصر.

–وقوف معظمها عند فترة زمنيّة محددة لا تتجاوز القرن الرّابع الهجري، ممّا أقصى مئات الألفاظ والتّراكيب الّتي جدَّت بعد ذلك في الاستعمال ولم تدخل المعجم.[11]

وبتأمّل قصير في هذه الانتقادات ألفينا أنّ كلّ عيب هنا هو في الحقيقة مبدأ من مبادئ الفريق الأوّل الّتي أقاموا عليها صرح الإحياء ومحاربة اللّحن، وعلى أنقاض

هذه العيوب أقاموا مبادئهم التّوسعيّة التّصحيحيّة، فعدم اهتمامهم بالألفاظ والأساليب المعاصرة وانشغالهم بقضايا تراثيّة وألفاظ مهجورة يعني الدّعوة إلى تجاوز الفصيح المهجور والمهمّل، وهذا يعني حتما فتح باب الاستشهاد على مصراعيه ليدخله من شاء فلم يعد منكرا أنّ يستشهد بكلّام أمثال طه حسين والعقّاد، ومحمود تيمور، وتوفيق الحكيم، وأبي القاسم الشّابي، ومخائيل نعيمة وغيرهم.[12] ولم يعد غريبا أن يرفع شعار "الخطأ المشهور أولى منَ الصّواب المهجور".

هذا مثال ضربناه لتستبين سبيل الفريقين أوّلا، ولنؤكّد أنَّ مفهوم التَّصويب قديما يختلف عنه حديثاً لدرجة التّضاد ثانياً، ولنؤكّد أيضاً أنَّ مصطلح التَّصويب قد تطوَّر دلالياً عند دعاة التَّصحيح المُحدثين، وصاروا يلمزون دعاة التَّجديد بمفهومه القديم بالمُغالين والمُتشدِّدين، فردّوا عليهم بأنّكم متسيِّبون تهديميّون وحمي الوطيس بينهما فريق حام ومحي للنّحو القديم، وفريق حائم حوله منتهك لقواعده.

أمّا مصطلح **الإصلاح** وإن كان يعنى بمفهوم المخالفة أن النّحو فاسد ويحتاج إلى إصلاحه، فهو لا يبعد دلالياً عن المصطلحات السّابقة، ويقال فيه ما يقال فيها فهو عند المحافظين إصلاح ألسنة النّاس بعدما شابها اللّحن فأفسد عليها فصاحتها وهو عند المحدثين إصلاح قواعد النّحو وفق نظرة حديثة تبيح الحذف والزّيادة، وإعادة التّرتيب والتّبويب.

تصنيف محاولات التّجديد قراءة في المضامين والدّلالات: يمكن تصنيف محاولات تجديد النّحو على كثرتها إلى أربعة اتّجاهات وهي:

1) الاتّجاه الأصولي السّلفي: ويدعو أصحابه إلى إحياء العمل بالنّحو القديم كما ورثوه والزّهد عن كتب المتأخرين، فالتّجديد عندهم إحياء ما اندرس من العمل بقواعد النّحو.

2) مذهب التّهذيب والتّشذيب: ويدعو أصحابه إلى تأليف ووضع كتب حديثة تتواءم وقدراتِ النّاشئة من الطّلبة وفق مراحلهم الدّراسية.

3) مذهب الانقلاب والتّجديد: ويدعو أصحابه إلى التّجرؤ على قواعد النّحو وأصوله حذفا وزيادة هدماً وبناء وفق ترتيب جديد لم يُعهد من قبل.

4) مذهب العجز والتّقصير: وهو دعوة صريحة إلى نبذ الفصحى واستعمال العاميّة بحجة أنّنا لم يعد بوسعنا التّواصل بالفصحى.13

1 ـــــ تجديد يخدم اللّغة: فالاتّجاه الأوّل (السّلفي) يرى أن اللّغة العربيّة أثبتت طوال ما يزيد على خمسة عشر قرناً قدرتها على الاستمرار والحياة دون عناء أو كلّفة لا عليها ولا على مستعمليها فالمثقّف العادي في القرن الحادي والعشرين إذا قرأ أو سمع بيت امرئ القيس الّذي قاله قبل خمسة عشر قرناً.

أغركِ منّي أن حبكِ قاتلي وأنكِ مهما تأمري القلبَ يفعلِ.

لم يجد صعوبة في فهمه ولا حاجة داعية إلى استشارة معاجم اللّغة وغريبها أو قرأ الأستاذ على طلبته بيت أبي الفراس الحمداني الّذي قاله منذ ألف عام.

نعم أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لا يذاع له سُّر.

لما سأله أحد عن معنى البيت ليسر كلّماته وقرب معانيها، فليس صحيحا ما يشاع عن اللّغة العربيّة بأنها اللّغة الوحيدة على وجه الأرض الّتي لم تتطوّر منذ ألف وخمسمائة عام، فكون الفاعل مرفوعاً والمفعول منصوباً لا يعني أننا أمام مستوى لغوي واحد، فللّغة العربيّة من وسائل التّطور كالاشتقاق والنّحت، والتّعريب والقياس، والتّضمن والمجاز وغيرها، ما يضمن لها التّطور والتّجدّد مع الحفاظ على الهيكلّ العام، ولا يمكن لأحد أن يدّعي أن اللّغة الّتي نستعملها اليوم في جامعاتنا ومدارسنا تعدّ نموذجا محنَّطا للّغة الّتي كان يستعملها الجاحظ في القرن الثّالث الهجري، أو أبو حيان التّوحيدي في القرن الرّابع الهجري، أو عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري، أو حتى طه حسين والعقّاد والرّافعي وغيرهم لقد تطوّرت العربيّة تطوّرا هائلا حتى جعلنا نظنّ أنّه لو بُعث الجاحظ من مرقده واطّلع على صحفنا المعاصرة لتملّكته الحيرة أمام لغة يعرف قواعدها

وحروفها وبعض كلّماتها، ولكن لا يعرف بعض معانيها لمّا أصابها من تطوير الدّلالة وتحوير التّركيب.[14]

نموذج ناجح: وهنا يحسن بنا سوق تجربة تجديدية ناجحة أفضت إلى إنعاش اللّغة العبريّة فقد ظلّت العبريّة لغة شبه دينية لقرون طويلة لا تستعمل إلاّ في نطاق ضيّق جداً، لكن مع أواسط القرن التّاسع عشر ظهرت مجموعة من الشّباب اليهود الأوروبيّين أسسّت حركة لإحياء اللّغة العبريّة كان من أبرز قادتها "أليعازر بن يهودا" الذي أطلق شعاراً نحن أحوج ما نكون إلى رفعه وهو :"لا حياة لأمّة بدون لغة" ،ودعا إلى إحياء العبريّة عند الأجيال الجديدة في مخاطباتهم اليوميّة وكانت الفكرة أقرب إلى المستحيل حتى عند غلاة اليهود إذ كيف يمكن إحياء لغة ميّتة لا يجيدها إلاّ بعض المتخصّصين ولا تستخدم إلا في دور العبادة، وتفتقر إلى معظم مفردات الحياة المعاصرة، وتتمنَّع حتى على رجال الدّين أنفسهم، فكيف تصبح لغة الأطفال في المدارس، والطّلبة في الجامعات وتُجري بها البحوث العلميّة؟ وكيف تصير لغة الإعلام والاقتصاد والسّياسة؟ وكيف لهذا الخيال المغرق في المثاليّة أن يتحقّق واليهود حينها مشتّتين في أنحاء المعمورة على أكثر من مائة دولة، يستعملون ثمانين لغة حيّة ليس فيها للعبريّة ذكر إلاّ في شعائرهم وصلواتهم لمن بقي منهم على حبل منها؟.

إنّه مشروع جلب السّخرية لأليعازر بن يهودا من أصدقائه، ولكنّه لم يلتفت لذلك وقرّر المضي قُدُما في أولى خطوات المشروع ومراحله فهاجر إلى فلسطين مع أسرته عام 1881م، وأنشأ أوّل بيت يهودي تُفرض فيه العبريّة لغة للتّخاطب اليومي في كلّ الأحوال، وعلى كلّ أفراد الأسرة، وساعده أفراد أسرته وظلّ على هذه الحال طيلة أربعين عاما رغم سخريّة النّاس منه.

أسّس رابطة أو جمعية للمتكلّمين بالعبريّة في فلسطين، وجعل داره مقراً لها يتلقّى فيه الشّباب المتحمّسون للفكرة يتواصلون فيها بلغتهم العبريّة، ثم أصدر

مجموعة من الصّحف باللّغة العبريّة في القدس، وخصّص بعضها للأطفال على أن يسمى أبطال القصص بأسماء عبريّة، كما عكف على إنجاز مشروع كبير وخطير يتمثّل في تأليف قاموس اللّغة العبريّة القديمة والجديدة، استقاه من كتب المتقدّمين في العهد القديم والتّلمود، والأدب العبري في بلاد الأندلس، واللّغات السّامية الّتي اختار منها بعض المواد وطوَّعها للاستعمال الحيّ، وكثيرا ما كان يلجأ إلى خلق مصطلحات جديدة عندما تبخل عليه كتب التّراث، واستطاع أن ينجز في حياته تسعة مجلّدات كبيرة وأتمّ إنجاز المهمّة تلاميذه، فأوصلوها إلى ستّة عشر مجلَّداً.

وأفلحت دعوته فهبَّ اليهود لإنشاء مدارس حديثة تقدم كلّ موادها باللّغة العبريّة وتهتمّ بتاريخ بني إسرائيل القديم والحديث، وكان حرصهم زائدا على ألاّ تُذكَر أسماء الأماكن إلا بالعبريّة، فالقدس هي "أورشليم"، والضّفة الغربيّة هي "السّامرا" وغزّة "يهودا" ونابلس "شكيم"، والخليل "حبرون"، وبير سبع هي "بئر شفيع" والقائمة مفتوحة، ومازالت هذه سياسة إسرائيلية مستمرّة حتىّ تثبت في الأذهان أنّ هذه الأماكن يهوديّة خالصة ولا حقّ فيها للعرب والمسلمين.

لقد مثّلت التّجربة العبريّة النّاجحة أفضل محاولة لتماسك الهويّة من خلال إحياء لغة ميّتة كان يُرى ذلك ضربا من الجنون، وبدعا من الفعل دفعت به أرحام حماسة الشّباب إلى الوجود، وسرعان ما تكتب له شهادة الوفاة، ولكن الّذي حدث هو العكس فما هي عناصر النّجاح الّتي انطوت عليها تجربة أليعازر بن يهودا؟

إنّ أوّل عناصر النّجاح في تقديرنا هو ذلك الشّعار الّذي رفعه علماً لتجربته "لا حياة لأمّة بدون لغة"، فالشّعار هو الهدف وتحديد الهدف ضرورة في كلّ عمل، وحتّى مفردات الشّعار تفصح عن معادلة مفادها : أنّه لا حياة لأمّة بدون لغة، ولتحيا الأمّة اليهوديّة لابدّ من إحياء اللّغة العبريّة، وروح اللّغة هو استعمالها على أوسع نطاق في كلّ مجالات الحياة ، وبقدر سعة الاستعمال تكون قوّة الحياة ونضارتها، وكانت أوّل مراحل الطّريق الهجرة إلى فلسطين مع أسرته، فسخّر بيته كنادٍ يلتقي فيه المتحمسّون للفكرة، يمارسون فيه انغماسهم اللّغوي، ثم تطوّر الأمر

فأصدر مجموعة من الصّحف باللّغة العبريّة في القدس راعى فيها حتّى النّاشئة وإن لم يكونوا هدفه الأوّل ثمّ أتبع ذلك بالشّروع في إنجاز معجم كبير باللّغة العبريّة، يقوم أساساً على نخل التّراث اليهودي وبعثه وإن احتاج إلى الاستعارة من لغات سامية أخرى أو خلق بعض المصطلحات فعل ذلك، واستطاع أن ينجز أكثر من نصف المشروع (9 مجلدات) ليواصل المهمّة تلاميذه من بعده (16مجلدا) . وهكذا أخذت تتّفتق دائرة الاستعمال من الأسرة إلى النّادي فالمجتمع لتسري في أوروبا، فهبّ اليهود لإنشاء المدارس الّتي تعنى بتدريس كلّ المواد العلميّة منها والإنسانية بالعبريّة دون عقدة نقص أو شعور بالدّونيّة، وها هي اليوم العبريّة أشدُّ ما تكون حياة تُدرَّس بها كلّ العلوم الحديثة من طب وهندسة، وكيمياء وفيزياء، فضلا عن العلوم الإنسانيّة بجميع فروعها، بها تعقد المؤتمرات، وبها تلقى المحاضرات، وبها يخطب ساستهم في كلّ الأوقات ،مع أنهم يجيدون الإنجليزيّة والفرنسيّة والإسبانيّة والرّوسيّة، لكن هويتهم وانتماؤهم يمنعانهم من استعمالها حتى غدت الجامعات اليهوديّة في طليعة جامعات العالم، بل فاق ما تنتجه جامعاتهم من البحوث بحوث الجامعات العربيّة مجتمعة كلّها، فهل الأمّة العربيّة أقلّ شأناً من هذه الشّرذمة من الشّباب المتحمّس؟ وهل اللّغة العبريّة أوفر حظاً من العربيّة؟ أعتقد أنّه لمن دواعي الحياء أن نعقد مقارنة بين لغة اختفت من المعاملات اليوميّة لأهلها وانزوت في معابدهم تترقّب تشييعها في مقبرة الآثار، وفي لحظة صحوة قرّرت الضمائر الحيّة من أبنائها الشّروع في علاجها وإحيائها بدل الوداع الأخير، وهم قلّة أذلّة عزّ ين على أكثر من مائة دولة قد كفتهم اللّغات الأوروبيّة المختلفة، وبين لغة روى لنا تاريخ الألسنة الطبيعيّة أن البشريّة لم يسبق لها أن عرفت لغة من لغاتها استطال بها الزّمن فعمرت فيه سبعة عشر قرنا دون أن تنسلخ عن هيكلّها البنائي تحت حركة التّاريخ وسلطان التّ بدل أو أنّ تلتحق بالألسنة الموات، إنّها تقدم نموذجا فريدا بين أيدي علماء اللّسانيات

بامتداد تاريخها وبتداولها التّلقائي في المؤسسّات التّعليميّة وفي أجهزة الإعلام المرئي والمسموع، وفي كلّ المحافل الرّسميّة، وفي كلّ قنوات التّواصل الثّقافي والفكري الّتي من أخطرها الكتاب والفضائيات الجديدة.[15]

2 ـــــ تجديد ييسّر اللّغة: أمّا الاتّجاه الثّاني (مذهب التّهذيب والتّشذيب) فهو يدعو إلى وضع كتب حديثة تراعي المراحل التّعليميّة للنّاشئة، وهذه الوجهة لا أظن أنّ أصحاب الاتّجاه الأوّل (السّلفي) يدفعونها أو يقفون في وجهها، بل يتّخذونها مرقاة للتّجديد الّذي ينشدونه، وقد انقسم التّأليف النّحوي في وقت مبكّر إلى قسمين : قسم علميّ أو نظريّ غرضه التّفكير في فلسفة النّحو وتبيان أصوله الّتي انبنى عليها، وقسم تعليمي غرضه تيسير النّحو وتبسيطه على النّاشئة.

فألف الكسائي ت189 ه زعيم المدرسة الكوفيّة كتابه "مختصر النّحو"، وألف الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة ت215ه – تلميذ سيبويه وحامل كتابه ومُمْلِيه على طلبته – كتابه "الأوسط في النّحو"، ومع ذلك فقد كانت هذه المختصرات مشوبة بعلل النّحو وتأويلاته وأقيسته، ما دعا الجاحظ إلى توجيه نصيحته الذّهبية للمعلّمين داعيا إيّاهم إلى الاقتصار على قواعد النّحو الأساسيّة الّتي تضمن السّلامة من اللّحن، وعدم شغل قلب الصّبي بعويص النّحو الّذي لا يحتاجه شاعر في شعره، ولا كاتب في كتابته فقال :"أمّا النّحو فلا تشغل قلب الصّبي منه إلا بقدر ما يؤدّيه إلى السّلامة من فاحش اللّحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه وما زاد على ذلك فهو مشغلة عمّا هو أولى به...وإنّما يرغب في بلوغ غاية النّحو ومجاوزة الاقتصاد فيه ...من ليس له حظّ غيره، ولا معاش سواه، وعويص النّحو لا يجري في المعاملات ولا يضطرّ إليه في شيء"[16].

وقد عمل النّحاة بهذه النّصيحة فطفقوا يؤلّفون للنّاشئة المتون والمختصرات منذ القرن الثّاني للهجرة إلى يومنا هذا، ولعل مختصرا لم ينل ما نالته المقدمة الآجرُّوميّة من الشّهرة لمؤلفها ابن آجرّوم المغربي ت723ه، إذ ظلّ لمتنها الحظوة في تعليم النّاشئة النّحو في كلّ أقطار العالم العربيّ من خليجها إلى محيطها، فكثرت

عليه الشُّروح، وهو متن صغير الحجم لا يتجاوز عشرين صفحة أيّ جزءا من القرآن الكريم وجلّي أن الغرض من الاختصار هو إسعاف النّاشئة بقواعد النّحو الأساسيّة الّتي لا غنى لطالب العربيّة عنها في إقامة اللّسان وتثقيفه.

وقد أقبل المستشرقون على هذا الكتيب طبعاً ونشراً، فطبع بروما في أواخر القرن السّادس عشر، ثمّ ترجم إلى اللاّتينيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة[17]، ويكفي شهادة لهذه الحظوة الكبيرة الّتي نالها متن الآجرّوميّة أن يعترف المفكّر اللّساني الكبير نعوم تشومسكي أنّه درسها في مرحلة تكوينه الدّراسي الجامعي، ففي حوار أجراه معه مازن الوعر، ونشرته مجلة اللّسانيّات الصادرة عن معهد العلوم اللّسانيّة والصّوتيّة في الجزائر عام1980م سأله مازن الوعر: "نعتقد نحن العرب أن الجهود الّتي بذلها اللّغويون العرب في علم اللّسان البشريّ في العصور المتقدّمة إنّما هي جهود مهمّة أسهمت إلى حدّ كبير في بناء علم اللّسان الحديث، ما هي آراؤكم حول هذه القضيّة؟" فأجاب نعوم (تشومسكي): "قبل أن أبدأ بدراسة اللّسانيّات العامّة كنت أشتغل ببعض البحوث المتعلّقة باللّسانيّات السّامية، وما زلت أذكر دراستي للآجرّوميّة منذ عدة سنوات خلت، أظنّ أنها أكثر من ثلاثين سنة وكنت أدرس هذا مع الأستاذ (فرانز روزنتال) الّذي يدرِّس الآن في جامعة يال، لقد كنت وقتذاك طالباً في المرحلة الجامعيّة أدرس في جامعة بنسلفانيا"[18].

لقد أشاد شوقي ضيف بصيحة الجاحظ ونصيحته، وأشاد بردة فعل معلميّ النّحو الّذين استجابوا لها دون أن يسمع لهم حسّ تنديد، أو ركز اعتراض تعريضا بالمحافظين وأشاد بمتن الآجرّوميّة الّتي اقتصر على أبواب النّحو الأساسيّة الّتي تعصم ألسنة النّاشئة من الزّلل وتجنبها اللّحن، ولكن يبدو أنّه نسي أو تناسى أن الجاحظ لم يدع إلى هدم قواعد النّحو وضرب جهود أجيال من النّحاة عُرْضَ الحائط بكلّمة "تجديد"، بل غاية ما في الأمر أنّه دعا إلى مراعاة أحوال المتعلّمين وخاصة النّاشئة منهم بأن تراعى مستوياتهم وقدراتهم، ونسى أنّ ابن آجرّوم عندما

دبّج متن الآجرّوميّة لم يقل: هذا هو النّحو وما زاد عليه فلا فائدة ترجى منـــه ولا جدوى من تعلمه.

إنّ "من الأخطاء الجوهريّة الّتي نقع فيها ونحن نقدّم اللّغـــة العربيّـــة للأجيـــال المعاصرة – أنّنا نقدّم –ـــ من ناحية هذه اللّغة باعتبارها كتلة واحدة تمتـــدّ امتـــداداً رأسياً أكثر من خمسة عشر قرناً، ومن ناحية ثانية نعامل الّذين يتعلّمونها على أنّهم كتلة واحدة أو مستوى واحد من المتعلّمين امتداداً أفقياً من الفلاّح والعامل الفنّي إلى المحاسب والمهندس، والطّبيب والمحامي والصّحفي والأديب، وصولا إلى العـــالم في النّحو والمتخصّص في اللّغة، وذلك كلّه خلط يسيء إلى اللّغة وإلـــى متعلّمهـــا على حدّ سواء".[19]

فلا أحد إذن ينكر الفصل بين المستويات التّعليميّة أفقيًّا ورأسياًّ، وما أظنّ أنّ هذا الأمر يخفى على قامة في العلم كشوقي ضيف فمن أين أوتي الرّجل إذن؟ الجـــواب على هذا السّؤال يكمن في مقدمة كتابه حين يقول: "ونخطئ خطأ كثيراً إذا ظننّا أنّ شيئا من ذلك أصاب ألسنة النّاشئةـــ عجزها واعوجاجها ـــ جعلهـــا تعجـــز عـــن النّطق السّديد بالعربيّة، إنّما مرجع هذا العجز أو القصور إلى النّحـــو الّـــذي يُقَـــدَّم إليها، والّذي يرهقها بكثرة أبوابه وتفريعاته وأبنيته وصيغه الافتراضـــيّة الّتـــي لا تجري في الاستعمال اللّغوي..."[20].

إنّي أعتقد جازماً أنّ الاختلاف في تشخيص الدّاء حتما يفضي إلى الاختلاف في وصف الدّواء، وهذا الّذي حصل بين المحافظين ودعاة التّجديـــد، ومـــنهم شـــوقي ضيف، فهو يرى أن مشكلّة الضّعف اللّغوي ناجمة عـــن نظـــام النّحـــو وقواعـــده العويصة الّتي أخرصت ألسنة النّاشئة عن أداء العربيّة أداء صحيحا فصيحا ومن ثم كان العلاج هو نظرة جديدة إلى النّحو تقوم على القـــدح فـــي الأصـــول النّحويّـــة القديمة، وفتح باب الاجتهاد في محاولة صريحة لاستبدالها، "فمـــا زادت علـــى أن كانت هذه الاجتهادات في الغالب مداميك إضافية أثقلت كاهل النّحو وبنيانه وغلقت أبواب العمل وفتحت الجدل"[21].

وقد أحسن صنعا عبد السلام المسديّ حين كشف الأسباب الّتي جعلت بعض النّاس يتظلّمون من صعوبة اللّغة العربيّة ،علّتهم اضطرارهم لفهم العربيّة كي يقرؤونها بينما النّاس في الأمم الأخرى يقرؤون لغاتهم كي يفهموها، "ومصدر هذا الظّن الواهم من ضربين: الأوّل أنّ قائله غير واع بأنّ العربيّة الفصحى بالنّسبة إلى كلّ عربيّ في أيامنا هي لغة مكتسبة بالتّعلم وليست مكتسبة بالأمومة، ولذلك فالحكم الّذي يصدره – سواء أصح أم لم يصح – هو حكم على آليات الاكتساب من تعلّم وتربية وتلقين أكثر ممَّا حكم على نظام اللّغة، والثّاني أنَّ ما يقوله لا يمكن أن يكون حكماً على اللّغة العربيّة، وإنّما هو أقرب الاحتمالات حكم على نظام تمثيلها الخطّي أي كتابته"[22]. نعيب نحوَنا ولغتنا والعيب ثاو فينا، وما للغتنا عيب سوى فساد ألسنتنا وطرائق اكتسابنا لها وضعف اهتمامنا وانتمائنا، وزعمنا أن العيب فيها لا فينا فزادها على وهن وهنا.

3 –تجديد فيه يختصمون: أمّا الاتجاه الثّالث فبه التصق مصطلح الّتجديد – وهو المراد في بحثنا– ولكن بمفهوم جديد محدث يغاير تماماً مفهومه عند أنصار الاتّجاه المحافظ، إنّه يطمح إلى تغيير منهج البحث في النّحو أملا في الوصول إلى نحو جديد يقوم على قواعد جديدة وفي مشروعيته وجدواه احتدم الصّراع بين المحافظين من جهة ودعاته من جهة أخرى.

حوار هادئ مع إبراهيم أنيس: يعدّ أنيس من أئمّة هذا الاتّجاه ودعاته الأوائل، فهو يرى أن الضّعف اللّغوي الّذي أصاب اللّغة العربيّة والنّاطقين بها على حدّ سواء ناجم عن خلل في نظامها النّحوي الّذي يحتاج إلى إصلاح شامل، ومن ثمّ راح يراجع هذا النّظام منتقدا تلك المقولات القديمة الّتي يراها أصحاب الاتّجاه المحافظ من المسلّمات الّتي لا تقبل جدلا إنه منهج يقوم على نقد المقولات النّحويّة القديمة وإعادة صياغتها من جديد، ولو أفضى ذلك إلى نحو يختلف تماماً مع ما

ورثناه عن الخليل وسيبويه والكسائي وغيرهم. لقد اتّضح أنّ هذا الاتّجاه يناقض الاتّجاهين السّابقين تماماً.

موقفه من اللّحن والإعراب: وحتّى لا نتّهم بالجناية عليهم سأسوق موقف إبراهيم أنيس من ظاهرة اللّحن فبعد أن ساق جملة من الأبيات الشّعرية والعبارات النثريّة نُسِبَ لأصحابها الخطأ واللّحن فيها خلص إلى أنَّ الموقف من هذه الرِّوايات يدور بين أمرين:

1) إمّا التّسليم بصحة هذه الرّوايات وثبوتها سنداً وأنَّ كلّمة اللَّحن كانت تعني غالباً الخطأ الإعرابي، وحينئذ لا مفرّ من أنّ نعُدَّ ظاهرة الإعراب من الظّواهر الّتي لا تمت للسّليقة اللّغويّة بصلة، لأنَّ ابن اللُّغة الّتي يحملها سليقة يستحيل عليه الخطأ في ظواهر تلك اللّغة دون أن يعرف ذلك، فهو لا يتصوّر وقوع الخطأ من صاحب السّليقة اللّغويّة في أيٍّ من ظواهر لغته في مستواها الصّوتي أو الصّرفي أو التّركيبي أو الدّلالي بأي حال من الأحوال، ويستدلُّ على هذه الوجهة بالإنجليزيّ الّذي لا يخطئ في لغته ونحن في كلّامنا بالعاميّة لا نخطئ فإن زلَّ للّسان في لحظة ارتباك أو تعلثم رجعنا عن هذا الزّلل في لمح البصر .

2) وإمّا أن ننكر هذه الرّوايات في جملتها وأن نقول: إنّها من صنع بعض النّحاة بعد أن أكملوا أصولهم وقواعدهم رغبة منهم في أن يُظهِروا كلّ من خالفهم بمظهر العجز، أو أن يتميزوا وينفردوا هم بمعرفة تلك المقاييس الإعرابيّة، وينالوا بذلك الحظوة عند السّلاطين والأمراء، وما صحّ من تلك الرّوايات ووصفوه باللّحن لم يكن خطأ إعرابياً، وإنَّما كان من الصّفات الخاصّة لبعض اللّهجات الّتي تحاشاها أرباب الفصاحة.[23]

لقد خيّرنا إبراهيم أنيس بين أمرين يفضي كلّ منهما إلى نتيجة واحدة وهي إنكار اللّحن بالمعنى الّذي اتّفق عليه علماء اللُّغة قدماؤهم ومحدثوهم، وهو الخطأ في استعمال اللّغة أصواتها وصرفها ونحوها ومعاني مفرداتها[24] وهذان الأمران هما إمّا التَّسليم بصحَّة هذه الرِّوايات، وحينئذ لا بدّ من إنكار

الإعراب كظاهرة من ظواهر العربيّة لها علاقة بالسّليقة اللّغويّة، وهـذه النّتيجـة مبنيّة على حجّتين هما:

1- استحالة وقوع الخطأ من صاحب اللّغة بالسّـليقة فـي أيّ مسـتوى مـن مستوياتها.

2- وإن حدث وأنّ وقع فسرعان ما يُتَدَارك ذلك الزّلل في لمح البصر أو أقَّـل وقد استدلَّ على هذا بأنّ الإنجليزيّ لا يخطئ في لغته، ونحن عندما نتكلّم بالعاميّـة نتدارك أخطاءنا بسرعة، وإمّا إنكار هذه الرّوايات ونتّهم النّحاة بوضـعها إعجـازاً لغيرهم وفرضا لسلطانهم عليهم، وطلباً للحظوة عند أمرائهم، وما صحّ منها فهـو لغات لبعض القبائل الّتي كانت تختلف عن اللّغة النّموذجيّة الأدبيّـة والّتـي كـان يتحاشاها الشّعراء والخطباء والأدباء من علّية القوم فسمّيت لحناً.

فهل حقاً يستحيل على صاحب اللّغة سليقة الخطأ في جميع مسـتوياتها؟ وهـل يستحيل على متكلّم الإنجليزيّة أو العاميّة أن يقع في الخطأ ثمّ لا يتداركه في لمـح البصر؟!

إنّ من يسمع هاتين الحجّتين يتصوّر أنّنا نتحدّث عن عصمة الأنبياء والرُّسل في تبليغ رسالات الله، وأنّهم لايُقَرُّون على الخطأ، وأنّ المسألة مُجمع عليها لا تحتـاج إلى ردّ أو اعتراض، أظنّ أنّ إبراهيم أنيس نسي أنّه يتحدّث في مسألة هـي مـن أعقد المسائل وأحوجِها إلى التّريُّث في إصدار الأحكام الجازِمة الجاهزة، فما هـو دليله على عصمة السليقيّين من مقارفة اللّحن؟ وما هـو دليلـه علـى أنّ العـاميّ (العربيّ) والإنجليزيّ معصومان من الخطأ وإن وقعا رجعا في لمح البصـر؟ وإذا كان الأمر كما يزعم فكيف يحدث التّطور الدّلالي؟ ألم يقل في كتابه دلالة الألفـاظ: "رأينا آنفا كيف أنّ كثيراً من ألفاظ اللّغات تتطوّر دلالاتها بمرور السّـنين وتـوالي العصور، ويعيننا هنا البحث عن أسباب ذلك التّطور الدّلالي أو عوالمه فتراها ذات

شطرين: منها تطوّر لا شعوري يتمُّ في كلّ لغة وفي كلّ بيئة ثمَّ لا يفطن إليه إلاَّ بعد المقارنة بين عصور اللّغة...؟"[25] فأين لمح البصر من هذه الأعصُر؟

وقد جعل إبراهيم أنيس من عناصر التّطور الدّلالي "سوء الفهم"، "وذلك حين يُسمع اللّفظ أوّل مرّة ويُمنح دلالة غريبة ثمّ لا يُتاح لهذا السَّامع فرصة لتصحيح خطئه ثمَّ تترسّخ تلك الدّلالة الوافدة في ذهنه، وليس من غير الشَّائع أن تتمَّ هذه الظَّاهرة بين عدد من الأفراد كلّهم يسيئون الفهم، ويتواطئون على تلك الإساءة فيحدث تطوُّر دلالي مفاجئ يُورَّثُ للجيل النَّاشئ".[26]

فالفرد يخطئ ويسئ الفهم، بل والأفراد يتواطئون على سوء الفهم حتّى يشيع ويصير أمراً مقضيا تركن إليه الأجيال النّاشئة، ولو كان الفرد ينتبه إلى خطئه ويرجع عنه في لمح البصر لما احتاج إلى تصحيح ناهيك عن الجماعة. "إن اللّغة ليست ساكنة فهي في تغيُّر مستمر في أصواتها وتراكيبها وعناصرها النّحويّة ومعانيها ".[27] فمهما أجهد أصحاب اللّغة أنفسهم في ضبط أصواتها وقواعدها وتحديد ألفاظها ومدلولاتها، ومهما أجهدوا أنفسَهم في إتقان تعليمها للأطفال قراءة ونطقاً وكتابة، ومهما أجهدوا أنفسَهم في محاربة اللَّحن والحدِّ من ذيوعه وانتشاره فإنها لا تلبث – اللّغة – أن تحطِّم هذه القيود، وتسير في السّبيل الّتي تريد أن تسير فيها غير عابئة بتلك الأغلال إنّها سنّة التّطور والارتقاء الطبيعيّين الّتي لا تعترف بالحدود والضّوابط.[28]

أمّا الخيار الثَّاني فقد بُنِيَ على التَّخريص وسوء الظّن والدّعاوى العارية، وإنّي لأعجب كلّ العجب كيف لمثل أبراهيم أنيس أن يسمح لنفسه باتهام بعض النّحاة بوضع تلك الرّوايات واختلاقها رغبة منهم في إعجاز غيرهم، وتفرداً بمعرفة تلك المقاييس الإعرابيّة دونهم؟ فمن هم هؤلاء النّحاة الوضّاعون أوّلا؟ وما الدّليل على وضعهم وافترائهم ثانيا؟ طبعا الجواب لا جواب.

إنّ اتهام بعض النّحاة يعني بمفهوم المخالفة أن بعضهم الآخر براء من هذه التّهمة، وإيهام بأنّهم لا يؤمنون باللّحن كظاهرة مرضيّة تنخر جسد اللّغة العربيّة

فنسأله مَن مِنَ النّحاة ينكر ظاهرة اللّحن؟ والجواب: لا جواب، ومن ثمّ صارت التّهمة في الحقيقة موجهة للنّحاة أجمعين فهل اجتمعوا على ضلالة؟ سبحانك هذا بهتان عظيم! وهل ترك سيبويه طلب الحديث والفقه إلاّ بعد أن لحقه التّأنيب من شيخه حمّاد البصري حين لحّن؟ يقول ابن هشام: "وذلك أنه جاء إلى حمّاد بن سلمة لكتابة الحديث فاستملى منه قوله – صلّى الله عليه وسلم – : " ليس من أصحابي أحد إلاّ ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدّرداء". فقال سيبويه: ليس أبو الدّرداء، فصاح به حمّاد: لحّنت يا سيبويه إنّما هذا استثناء. فقال سيبويه: والله لأطلبنّ علماً لا يلحّنني معه أحد ثمّ مضى ولزم الخليل وغيره"[28].

والكسائي زعيم المدرسة الكوفيّة ما تعلم النّحو إلاّ على كِبَر، وذلك أنّه حادث قوماً من الهباريِّين فلحَّنوه، فأنف من التّخطئة وطفق يتعلّم النّحو من معاذ الهرّاء وعيسى بن عمر والخليل وغيرهم.[29]

فاللّحن لم ينكره أحد من النّحاة المتقدّمين – فيما أعلم – فكيف يزعم إبراهيم أنيس أنّ بعض النّحاة وضعوا هذه الرّوايات؟ وتزداد الفرية إثما حين يتّهمهم بفعل ذلك طمعا في نيل الحظوة عند السّلطان فحاشاهم أن يكذبوا وحاشاهم أن يفعلوا ذلك ابتغاء عرض من الدّنيا قليل، وها هو إمام النّحو الخليل على فقره وحاجته يردّ طلب سليمان بن علي عمّ أبي العباس السّفاح واليّ فارسَ والأهواز حين أرسل إليه بتأديب ولده فأخرج الخليل إلى رسوله خبزاً يابساً، وقال ما دمت أجده فلا حاجة بي إلى سليمان، وسيبويه يموت كمَداً بعد تلك المنازلة الّتي جرت بينه وبين الكسائي[30] وحتىّ الّذين نالوا الحظوة عند السّلاطين لا يحقّ لنا اتّهامهم بالوضع والكذب، فهل يحقّ لنا مثلا أن نتّهم الكسائي بالوضع وهو إمام في القراءة.

إن الحكم على الرّوايات بالوضع لا يكون بتلفيق التّهم والدعاوى العارية وإنّما يكون بالنّظر في أسانيدها رواية من أهل الاختصاص دون غيرهم.

وإن صحّت بعض الرّوايات ولم يجد أنيس محيصا من إنكارها لجأ إلى التّأويل فقال عمّا وصفوه باللّحن إنّه لم يكن خطأ إعرابياً وإنّما صفة من الصّفات الخاصّة في لهجاتهم، وهذا الرّأي يتّفق مع رأي بعض المحدثين الّذين وافقوا القدامى على أن "اللّحن لم يكن في الجاهلية ألبتة، وكلّ ما كان في بعض القبائل من خور الطّباع وانحراف الألسنة فإنّما هو لغات لا أكثر".[31]

فكأنّ المتقدّمين تحرّجوا عن وصف تلك الانحرافات باللّحن، وإنّما وصفوها بالشُّذوذ، علّتهم في ذلك أنّ المتكلّم عهدئذٍ عربيّ فصيح وإن خالف الوجه المشهور واللّغة الأدبيّة النّموذجيّة فإنّه يتكلّم بلغة قبيلته فلا يعدّ ذلك لحنا.[32]

وهذا الّذي نبّه إليه ابن جنّي بقوله: "إنّ الشيء إذا اطّرد في الاستعمال وشذّ في القياس فلابدّ من اتبّاع السّمع الوارد به فيه نفسه، لكنّه لا يُتَّخَذ أصلا يقاس عليه، ألا ترى أنك إذا سمعت استحوذ واستوصب أدّيتهما بحالهما، ولم تتجاوز ما ورد به السّمع فيهما إلى غيرهما"[33].

غير أن هناك فريق آخر رفض الرّأي السّابق وذهب إلى أنّ اللّحن قد وقع في العصر الجاهلي فقال: "اللّحن إذن وُجد في اللّغة العربيّة قبل الإسلام وإن لم يكن من طبيعة العرب الخُلَّص أن يرتكبوه فإنّه بقي محصورا بين هذه الطّبقة الضّعيفة من المجتمع"[34].

فالخلاف بين هذين الفريقين هو خلاف شكلّي مصطلحي لا أكثر، وإلاّ فكلّاهما يقرّ باللّحن كظاهرة لغويّة مَرَضيّة، إلاّ أنّ ما كان منه في الجاهلية عند الفريق الأوّل هو شذوذ، وعند الثّاني هو لحن. هذا نموذج واحد من نماذج التّجديد سقناه لنستدلّ به على مفهوم التّجديد عند دعاته. إنّه" في دلالته الأساسية ينصرف إلى نقد أسس المجال المعرفيّ الّذي يتمّ تجديده أو إعادة تعديل تلك الأسس وتغييرها ".[35] وهو ظاهرة نسبية تتحدّد نسبيتها على ضوء مجموعة من المحدّدات وهي:

– طبيعة العلم أو المجال المعرفيّ الّذي يتمّ تجديده؛

– طبيعة اللّحظة التّاريخيّة الّتي ولّدت دواعي التّجديد؛

– طبيعة الفئة المتلقّية للتّجديد؛

– طبيعة المجدّد نفسه وقدرته على اكتشاف المتغيّرات الجديدة الّتي أوجبت التّجديد، وكذا قدرته على بلورة النّموذج الجديد البديل انطلاقا من وعيه بجوانب القصور في المجال المعرفيّ الّذي يسعى إلى تجديده .[36]

فالمجال المعرفيّ المراد تجديده هو النّحو العربيّ وهو مخّ العربيّة وقرآنها أُوجِد حماية لجناب كتاب الله من الزّيغ واللّحن في تلاوته والإلحاد في دلالته، وعلى رسمه ونهجه دُوِّن تراث الحضارة العربيّة الإسلاميّة وتراكم على مدار خمسة عشر قرنا من الزّمن، واستبداله بنحو جديد وقواعدَ جديدة يعني القطيعة مع هذا الإرث الزّاخر وفصل الأجيال اللاحقة عن تاريخها وإحداث البين بينها وبين هويّتها، وهذا ما لا يرضاه عقل يميّز بين المصالح والمفاسد.

واللّحظة التّاريخيّة الّتي خرجت من رحمها حوافز التّجديد لا تزيد عمرها عن ثمانية عقود صار ينظر فيها إلى اللّغة على أنّها غاية في ذاتها وليست وسيلة إلى غيرها، تأثرا بوجهة نظر اللّساني السويسرى "فرديناند دي سوسير " الّذي أعلن أنّه يجب أن ندرِّس اللّغة في ذاتها ولأجل ذاتها .[37]وتانك طبيعتان مختلفتان بل متناقضتان أغفلها التّجديديّون، يضاف إلى ذلك طبيعة جمهور المتلقّين الّذين ينظرون إلى هذا التّجديد وإلى دعاته القائمين عليه بعين الرّيبة والشّك، لمَّا وقع في قلوبهم من حب العربيّة وإيمانهم بقدرتها على التّجدد والاستمرار بالطّريقة الّتي لا تمسّ جوهر النّحو.

إنّ عجز المجدّدين عن بلورة نموذج بديل على الرّغم من طول المدّة وكثرة المحاولات وتوفّر الإمكانات لدليل قاطع على أنّ الأمر لم يؤت من بابه وأنّ التّجديد ما هكذا يكون. إنّ عدم قدرتهم على التّمييز بين الثّابت والمتحوّل في النّحو العربي لشاهد على أنّهم لم يستوعبوا النّحو العربي الأصيل، ولم يعطوه حقّه من الاجتهاد المفضي إلى الفهم الصّحيح، فكانت النّتيجة الصّورة المشوَّهة الّتي " أدّت ببعض معاصرينا إلى الطّعن فيما تركه لنا العلماء العرب حتى الأوّلون الفطاحل منهم

فحاولوا أن يستبدلوا أوضاع النّحو القديم بشيء تافه استعاروه من النّحو التّقليدي الأوروبي، وما استبدلوا في الواقع إلاّ مصطلحا بآخر لا يقلّ عنه قيمة ومدلولاً ".[38]

4 ـــــ تجديد يهدّم اللّغة: أما الاتّجاه الرّابع وهو مذهب العجز والتّقصير، وقد أحسن حسن العكيلي حين سمّاه كذلك، لأنّ أصحابه عجزوا عن إحياء الفصحى وتَمَثُّل قواعد النّحو، وقصرت همّتهم عن ذلك فلجأوا إلى الدّعوة إلى العاميّة لأنّها لا تكلّفهم شيئا إلاّ أن يتكلّموا كما يحلو لهم دون قيد أو ضابط، وعلى الرّغم من إفلاس هذه الدّعوة من الحجج والأدلّة فقد لاقت رواجا كبيرا عند خاصة النّاس فضلا عن عامتهم في جميع الأقطار العربيّة وصرنا نسمع أساتذة التّعليم العالي يحاضرون بالعاميّة في مقاييس اللّغة والأدب دون أدنى احترام للتّخصّص، فكيف نلوم غير المتخصّص؟

بل منهم من دعا إلى الأخذ بالعاميّة صراحة بدلاً عن الفصحى مُتكهِّنًا أنّ العربيّة سوف تلقى مصير اللاّتينيّة نفسه، ناسياً أو متناسياً أنّ العربيّة لغة القرآن الكريم ووعاءه الّذي شرَّفه الله بالحفظ والصّون، وهو ما لم تنله اللاّتينيّة، "فليست اللاّتينيّة باللّغة الأصليّة للمسيحيّة ولا ترتبط بها ذلك الرّباط المقدس الّذي نلحظه بين الإسلام والعربيّة"[39]، وصدق من وصف هذا المذهب من التّجديد بمذهب العجز لأنّ أصحابه عجزوا عن فعل أيّ شيء إلا الاستسلام للعاميّة والانسياق وراء سيلها الجارف. وهذه الأسباب مجتمعة أبردت وطيس التّجديد وأخمدت جذوته فلا تكاد ترى له إلا دخاناً هنا وهناك بين الفينة والأخرى دون جدوى.

إنّ الدّعوة إلى اعتماد العاميّة هي دعوة صريحة إلى الإجهاز على الفصحى لغة القرآن الحكيم والحديث النّبويّ الشّريف، اللّغة الّتي جمعت فأوعت تراث الأمّة العربيّة على امتدادها الجغرافي من مغربها إلى مشرقها، وفي عمقها من العصر الجاهلي ونزول القرآن الكريم غضّا طريّا على قلب المصطفى – صلّى الله عليه وسلم – إلى يومنا هذا، وبل وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، نعم لقد تعهد الله تبارك وتعالى بحفظ القرآن الكريم المُنزَّل بلسان عربيّ مبين فقال: "إنّاً نحن

نَزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون"[40].ولكن هذا لا يُعفينا من السّعي في بعثها والحرص على سلامتها لأنَّ الله جعل لكلّ شيء سببا.

التّعالق الدّلالي بين التّجديد والتّيسير والتّصويب: ما يمكن استخلاصه مماَّ سبق وتأكيده تحت هذا العنوان هو أنَّ لهذا الاختلاف الواقع في تحديد مفاهيم هذه المصطلحات ودلالاتها يعود بعضه على الأقل إلى التطوُّر الدَّلالي الّذي أصابها. فمعلوم عند علماء الدّلالة أنّ اللّغة كائن حي ينمو ويتطوَّر ويؤثر ويتأثر وتنتقل من جيل إلى جيل يعبر بها كلّ جيل عن أغراضهم ومقاصدهم، وهي في نموِّها ذلك تفقد بعض ألفاظها وتكتسب أخرى، كما تتوسّع دلالتها أو تضيق أحياناً أخرى وهذا التّطوّر يتمُّ في لحظة اللاّشعور ولا يتنبه له غالباً إلا بالمقارنة بين الحقب التّاريخيّة، ثمّ ترث الأجيال النّاشئة هذه الألفاظ بدلالتها المنحرفة دون أن تشعر بذلك ويتأكد ذلك الانحراف على توالي الأجيال.[41]

فمصطلح التّجديد يعني في أصله إحياء الشّيء وهو محاولة العودة به كما كان يوم نشأ أوّل مرّة، وهنا يشرع لنا أن نتساءل: هل التّجديديُّون يقصدون بتجديد النّحو بعثه كما كان في القرون الثّلاثة الأولى؟ بمعنى أن يعود للنّحو شأنه ومنزلته وسلطاته ونفوذه حتى على فحول الشّعراء ومصاقع الخطباء، وأن يوصف كلّ خروج منهم على قواعده باللّحن، وأن يُجْتَنَبَ كما تجتنب الذّنوب. أظنّ أنَّ الجواب سيكون بالنّفي.

لقد بدا جلياً أنَّ مفهوم مصطلح التّجديد قديماً يختلف عن مفهومه حديثاً، وهذا الاختلاف ناجم عن تطوّر دلالي مفهومي أصاب هذا المصطلح "التّجديد" مع مرور الأيّام وتَكَوثُرِ البحوث واختلاف الرّؤى والوجهات. يقول علماء الدّلالة إنّ الألفاظ لم تخلق لتحبس من وراء زجاج الخزائن أو البلّور ليتفرج عليها النّاس من وراء تلك الخزائن ولو كانت كذلك لجمدت على حالها ومعانيها جيلا بعد جيل، ولكنّ وُجِدت لتُتَداول ويعبِر بها كلّ قوم عن مقاصدهم وحاجاتهم.[42]وفي خضمّ هذا

التّداول يصيبها التّطوّر والتّغيُّر.وإذا تأمّلنا مفهوم التّجديد النّحوي قديماً وحديثاً ألفينا أعراض التّعميم الدّلالي بادية فيه، حيث تحوّلت دلالته من المعنى الجزئي الضّيّق إلى المعنى الكلّي الواسع فهو عند القدامى إحياء العمل بقواعد النّحو كما هي دون زيادة أو نقصان، أماَّ عند المحدثين فهو العمل بقواعد النّحو مع حذف وزيادة وتعديل بعضها إن دعت الحاجة إلى ذلك، فصار معنى التّجديد مصطلحا موسّعا إذا جمعنا بين النّظرتين (القدامى والمحدثين). ولكن يجب أن ننبِّه إلى أن المحافظين يرون أن مفهوم التّجديد قد انحطت دلالته عند التّجديدين، في حين أنَّ الأخيرين يرونه تَغيُّر نحو الرُّقي والسُّمو، وتلك طبيعة المسائل الخِلافية. والشّيء الأكيد أنَّ مفهوم مصطلح "التَّجديد" قد تطوَّر وتغيَّر والآكد منه أنّه عندما يُطلق في عصرنا فالمراد هو المعنى الثّاني لا الأوّل.

هوامش البحث:

1 ينظر عبد السلام المسدي: المصطلح النّقدي وآليات صياغته (كتاب يصدر عن نادي جـــدة الأدبي الثّقـــافي) المملكة العربيّة السعوديّة، المجلّد2، الجزء8، ص57.

2 ابن منظور الإفريقي: لسان العرب، دار المعارف، مادة (ج د د) ص563ـــــ564.

3 محمد بن أبي بكر الرّازي: مختار الصّحاح، ضبط وتخريج وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار الهدى، عين مليلـــة، الجزائر، الطّبعة الرّابعة، 1990م، ص70.

4 أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني: سنن أبي داود، تعليق: ناصر الدين الألباني، واعتنـــاء :أبـــو عبيـــدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع الرّياض، الطّبعة الثّانية، 1424هـــ، ص768

5 عدنان محمد أمامه: التّجديد في الفكر الإسلامي، دار ابن الجوزي، الطّبعة الأولى

1424هـــ، ص17.

6 المرجع نفسه ، ص17.

7 المرجع نفسه ، ص18.

8 ينظر: حسن منديل العكيلي: الخلاف النّحوي في ضوء محاولات التّيسير الحديثة دار الضّياء للنّشر والتّوزيـــع، عمان ،2011م، ص79ـــــ80.

9 الزّبيدي أبو بكر محمد بن الحسن : طبقات النّحويّين واللّغويّين، تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الباي الحلبي، القاهرة، الطّبعة الثّانية، دـــــــ ت، ص11.

10 محمد الطنطاوي: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ،دار المعارف القاهرة، الطبعة الرابعة، 2011، ص16.

11 ينظر: أحمد مختار عمر: معجم الصّواب اللّغوي، دليل المثقّف العربي، عالم الكتاب الطّبعـــة الأولى، 2008م، المجلّد الأوّل، المقدّمة ص "ب".

12 ينظر: المرجع نفسه، الجزء الأول، المقدمة ،ص "ج".

13 ينظر: حسن منديل العكيلي: الخلاف النّحوي في ضوء محاولات التّيسير الحديثة مرجع سابق، ص89.

14 ينظر: أحمد درويش، إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية، تطوير اللغة العربية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2006م، ص65ـــــ66.

15 ينظر: عبد السلام المسدي: العربيّة والإعراب، دار الكتاب الجديـــدة المتّحـــدة، بـــيروت لبنـــان، الطّبعـــة الأولى،2010م، ص148ـــــ149.

16 شوقي ضيف: تيسير النّحو التّعليمي قديما وحـــديثا مـــع نهـــج تجديـــده، دار المعـــارف الطّبعـــة الثّانيـــة، 1986م،ص13.

17 المرجع نفسه، ص15ـــ16.

18عبد السلام المسدي: العربيّة والإعراب، مرجع سابق، ص138.

19 أحمد درويش: إنقاذ اللّغة إنقاذ الهويّة، تطوير اللّغة العربيّة، مرجع سابق، ص3.

20 شوقي ضيف: تيسير النّحو التّعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده ، مرجع سابق ص3.

21 ينظر: عفيف دمشقية، خطى متعثّرة على طريق تجديد النّحو العربي (الأخفش ـــ الكوفيـــون)، دار العـــالم للملايين، بيروت لبنان، الطّبعة الثّانية، 1982، ص17.

22 عبد السلام المسدي: العربيّة والإعراب، مرجع سابق، ص149، 150.

23ينظر إبراهيم أنيس:من أسرار العربيّة ، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، الطّبعة الرّابعة 2010م ص173.

24 يوهان فك: العربيّة في اللّغة واللّهجات والأساليب، مع تعليقات المستشرق الألماني شبيتالز، ترجمة : رمضـــان عبد التّواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980، ص243.

25 إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ ، مرجع سابق ،ص103 .

26 المرجع نفسه، ص104.

27ماجد الصايغ: الأخطاء الشّائعة وأثرها في تطوّر اللّغة العربيّة، دار الفكـــر اللبنـــاني بـــيروت، الطّبعـــة الأولى ،1990م ص34.

28ينظر: علي عبد الواحد وافي: اللّغة والمجتمع، دار النّهضة، مصر، القاهرة 1971م، ص109ـــ110

29محمد الطنطاوي: نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة، مرجع سابق، ص80.

30المرجع نفسه، ص117.

31ينظر محمد الطنطاوي: نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة، مرجع سابق، ص78 ـــ103.

32مصطفى صادق الرّافعي: تاريخ آداب العرب، تحقيق محمد سعيد العريـــان، دار الكتـــاب العـــربي، بـــيروت، 1974م، ج1، ص237.

33ينظر: محمد ضاري حمادي: حركة التّصحيح اللّغوي في العصر الحديث، دار الرّشيد للنّشر، العراق، 1980م، ص10.

34ابن جني: الخصائص ، تحقيق محمد علي النّجار، دار الكتب، القاهرة، 1952م الجزء الأول، ص100.

35حسن عودة: اللّغة والنّحو، الاسكندرية، مطبعة رويال، 1952م، ص185.

36سامي سليمان أحمد: البداية المجهولة لتجديد الدّرس النّحوي في العصر الحديث (القرن الثّامن عشر وكتاب بحث المطالب)، تقديم حسين نصار ،مكتبة الثّقافة الدّينية ،القاهرة ،الطّبعة الأولى ،2004م ،ص16 .

37المرجع نفسه ،ص 16 .

38عبد الرحمان الحاج صالح :أثر اللّسانيات في النّهوض بمستوى مدرِّسي اللّغة العربيّة ،[1]مجلة اللّسانيات ،معهد العلوم اللّسانية والصّوتية ، الجزائر ،العدد الرّابع ،1974 م ، ص 21.

39إبراهيم أنيس : اللّغة بين القوميّة والعالميّة، دار المعرفة، مصر، د ط، د ت ص281

40سورة الحجر، الآية 09.

41 ينظر: إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو غالمصرية، القاهرة، 1958 ص103.

42 ينظر: إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ، مرجع سابق، ص103.